دار الحديث العراقية

تفسير

سورة النبأ

الشيخ الدكتور

ماهر بن ياسين الفحل

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة ((عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)) بهذا سمّاها البخاريُّ في صحيحه ، وكذا في بعض المصاحف .

وتسمى اختصاراً بـ((عمَّ)) كما هو في بعض المصاحف والكتب .

والتسميةُ الأشهرُ لهذه السورة تسميتُها بـ ((سورة النبأ)) لقوله تعالى : ((عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)) .

وبعضهم سمّاها بـ ((سورة التساؤل)) ، وبعضهم بـ ((المعصرات)) .

والناس كثيراً ما يتلون هذه السورة والشارع يريد التِّلَاوَةَ الْحَقِيقَةَ بِاسْمِ التِّلَاوَةِ ، وَهِيَ التِّلَاوَةُ بِفَهْمِ مَعَانِي الْمَتْلُوِّ وَأَغْرَاضِهِ.

وهي سورة مكّية ، وهي سبعُ مائةٍ وسبعونَ حرفاً ، ومائةٌ وثلاثٌ وسبعونَ كلمةً ، وأربعون آية .

وفي السورة استنكارٌ لما يبدو منَ الكفار منِ استعظام التصديق بالقرآن واستعظام خبر البعث والجزاء الأخرويين ، ثم التوكيد بوقوعهما ، وفي السورة تدليلٌ على قدرة الله عليهما بمشاهد كون الله وعظمته ونواميسه ، وإنذارٌ بأهوالِ القيامة ومشاهدِها ، ووصفٌ قويٌّ لمصائر الكفار والمؤمنين فيها. قال ابن عاشور : ((أغراضها : اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى وَصْفِ خَوْضِ الْمُشْرِكِينَ فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ وَمَا جَاءَ بِهِ مِمَّا يُخَالِفُ مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وَمِنْ ذَلِكَ إِثْبَاتُ الْبَعْثِ، وَسُؤَالُ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَنِ الرَّأْيِ فِي وُقُوعِهِ مُسْتَهْزِئِينَ بِالْإِخْبَارِ عَنْ وُقُوعِهِ ، وَتَهْدِيدُهُمْ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمْ ، وَفِيهَا إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ بِخَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَبِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ لِلْإِنْسَانِ وَأَحْوَالِهِ.وَوَصْفُ الْأَهْوَالِ الْحَاصِلَةِ عِنْدَ الْبَعْثِ مِنْ عَذَابِ الطَّاغِينَ مَعَ مُقَابَلَةِ

ذَلِكَ بِوَصْفِ نَعِيمِ الْمُؤْمِنِينَ.وَصِفَةُ يَوْمِ الْحَشْرِ إِنْذَارًا لِلَّذِينَ جَحَدُوا بِهِ وَالْإِيمَاءُ إِلَى أَنَّهُمْ يُعَاقَبُونَ بِعَذَابٍ قَرِيبٍ قَبْلَ عَذَابِ يَوْمِ الْبَعْثِ.وَأُدْمِجَ فِي ذَلِكَ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَمِنْ جُمْلَةِ الْأَشْيَاءِ أعمال النَّاس)) .

وقوله تعالى : ((عَمَّ يَتَساءَلُونَ)) فـ((عَمَّ)) كلمةٌ مركبةٌ من حرفين هما (عن) و(ما) فأدغمتِ النونُ مع الميم ، وحذفتِ الألفُ بسبب دخول حرف الجر (عن) ، نحو (فِيمَ) وَ(بِمَ) وَ(لِمَ) وَ(عَلَامَ) وَ(حَتَّامَ) . والسَّبَبُ فِي هَذَا الْحَذْفِ التَّخْفِيفُ فِي الْكَلَامِ ؛ فَإِنَّهُ لَفْظٌ كَثِيرُ التَّدَاوُلِ عَلَى اللِّسَانِ. وفي الآية الأولى افْتِتَاحُ تَشْوِيقٍ ثُمَّ تَهْوِيل ، فالِاسْتِفْهَامُ بِمَا فِي قَوْلِهِ : ((عَمَّ يَتَساءَلُونَ)) لَيْسَ اسْتِفْهَامًا يراد منه السؤال ، بَلْ هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّشْوِيقِ إِلَى تَلَقِّي الْخَبَرِ نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ((هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ))

ومعنى الآية : عنْ أي شيء يتساءلون ؟ والتَّسَاؤُلُ : هُوَ أَنْ يَسْأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وكانوا حينذاك يتسائلون عن الخبر العظيم الذي استطار أمره بينهم ، وهو القرآن .

فمن بديع المعنى أنْ يكون هذا الاستفهام : تساؤلٌ عن التساؤل : بمعنى : عن ماذا يتساءل أهل مكة ، وعن أي شيء يختلفون ؟

والفائدةُ في أنْ يذكر السؤال ثم يذكر الجواب معه كونُ هذا الأسلوب أقربَ إلى التفهيم والإيضاح ، وهو منهجٌ نبويٌّ كما في صحيح البخاري (٦١)و(٦٢) بابُ طرح الإمام المسألة على أصحابه.

ثم جاء الجواب سريعاً لبيان قبيح اختلافهم وعدم إيمانهم فقال تعالى :

((عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)) وَالتَّقْدِيرُ: يَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ إِلَّا أَنَّهُ حَذَفَ يَتَسَاءَلُونَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ، لِأَنَّ حُصُولَهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى يَدُلُّ عَلَيْه ، وفيه البيانُ عن تساؤلهم ، وأنَّه نبأٌ ، وأيُّ نبأ هو (النبأ العظيم)كما قال تعالى : ((قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)) فالنبأ العظيم هو القرآن ؛ فالقرآن نبأٌ عظيم . فقوله تعالى : (عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ) بيانٌ للمفخمِ شأنُهُ أخرج آدم بن أبي إياس بسنده الصحيح عن مجاهد (النبأ العظيم) : القرآن. قَالَ الرَّاغِبُ: «النَّبَأُ الْخَبَرُ ذُو الْفَائِدَةِ الْعَظِيمَةِ يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَلَبَةُ ظَنٍّ وَلَا يُقَالُ لِلْخَبَرِ نَبَأٌ حَتَّى يَتَضَمَّنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الثَّلَاثَةَ

وَيَكُونَ صَادِقًا» وَأَوَّلُ ذَلِكَ إِنْبَاؤُهُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ، وَمَا تَضَمَّنَهُ الْقُرْآنُ مِنْ إِبْطَالِ الشِّرْكِ، وَمِنْ إِثْبَاتِ بَعْثِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وقيل في تفسير (النبأ العظيم) : النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وقيل : البعثُ فالنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم حذّرهم ما بعد الموت . وقيل : الإسلام .

والراجح ما ذكرناه أولاً أنَّ المقصود هنا بـ((النبأ العظيم)) القرآن ، والتفسير بالنَّبيّ والبعث يدخلان في المعنى الأول فالذي أنزل عليه القرآن هو النَّبيُّ محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، وذكرُ البعث مما جاء به القرآن الكريم .

وبعضهم عمّم المعنى ، وقال : يعم ما هو أشملُ وأوسعُ وهو أمرُ الإسلام والإيمان والنبوة والوحي والغيب والآخرة والحساب والجزاء .

فيكون (النبأُ) هو ما جاء به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من البينات والهدى ولاسيما ما جاء به من الأخبار عن اليوم الآخر والبعث والحشر والجزاء والحساب والقصاص ، وأمر اليوم الآخر قد أخذ حيزاً كبيراً في القرآن ؛ لأهمية الاستعداد إليه . وتأمل وصفه (النبأ) بـ(العظيم) مع أنَّ النبأ لا يقال إلا لخبر عظيمٍ شأنُهُ ، ففي ذلك كلِه تنبيهٌ على أنَّه من حقه أنْ يُذعِن له كلُّ سامع ويهتم بأمره ، لا أنْ يُشك فيه ويُجعلَ موضعاً للنزاع فـ(النبأ) إذن : هو الخبر المهم .

وقد اختلف الناس في هذا النبأ الذي جاء به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم من عند ربه : فمنهم من آمن به وصدّق ، ومنهم منْ كفر به وكذّب ، ومنهم من شك فيه وتردد .

فبيّن اللهُ أنَّ الذين كذَّبوا به سيعلمون علمَ اليقين صدقَ هذا النبأ العظيم الذي أعرضوا عنه سيعلمون ذلك عند سكرة الموت ، فتجتمع عليهم سكرةُ الموت وحسرةُ الفوت ويومَ القيامة كما قال تعالى : ((هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)) الأعراف ٥٣ .

إذن في قوله تعالى : ((عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ)) الاستفهامُ فيه تعظيمُ المستفهم عنه ، وقد فُخّم بالاستفهام ثم فخم بالعبارة حينما قال : ((عن النبأ العظيم)) وفي الاستفهامِ إنكارٌ عن التساؤل ؛ لأنَّه نبأٌ عظيمٌ وأمرٌ واضحٌ جليٌّ تقوم عليه الأدلة ، وقد ساق الله صوراً في الكون تدل على الإيمان به سبحانه وتعالى . وإِيرَادُ الْكَلَامِ فِي مَعْرِضِ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ أَقْرَبُ إِلَى التَّفْهِيمِ وَالْإِيضَاحِ وَنَظِيرُهُ قوله تعالى : ((لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)) .

وقوله تعالى : ((الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)) . فقد اختلف أهل مكة بين مُصدّق ومكذبٍ ومؤمنٍ وكافرٍ وجازم ومتردد ، واختلفوا في الحكم على القرآن وعلى من أنزل عليه القرآن .

وقوله تعالى : ((كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)) فـ(كلا) كلمةُ ردع وزجر ، وفيه بيان أنَّ هؤلاء المتسائلين المكذبين لم يكن تساؤلهم لطلب الحق ومعرفته ، وإنمَّا كان تساؤلهم تساؤلَ المكذب الملبس المعرض ، وأنَّهم سيعلمون صدقَ ما جاء به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وسيندمون وأنَّى لهم الندمُ ثم كرر الأمر توكيداً وبياناً فقال تعالى :

((ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ)) وهو مع الردع والزجر بيانُ أنَّ الأمر يحتاج إلى مزيد اهتمام ، وأنَّهم سيعلمون عاقبةَ أمرهم في الآخرة .

و(ثم) حرف عطف للترتيب الزمني ، أي : سيعلمون في الدنيا ، ثم يعلمون في الآخرة .

سيعلمون حقيقة الحال ، وسيعلمون ما يحل بهم من العقوبات والنكال . فتكريره مع الإبهام ، يفيد خطورة الحال والاستقبال فحذف مفعول (سَيَعْلَمُونَ) للتعميم والتهويل ، أي : سيعلمون علم اليقين وعين يقين وحق يقين ما سيحل بهم من عذابٍ مقيم ، وسيرون ذلك رأيَّ العين عما قريب ، كما قال تعالى (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً، وَنَرَاهُ قَرِيباً) .

ومع اختيارنا لمعنى (النبأ العظيم) معتمدين على تفسير القرآن كما جاء في سورة ص فيكتمل المعنى في السورة نفسها عند قوله تعالى : **((إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ))**

أي : سيعلمون نبأ القرآن ونبأ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم وارتفاعَ رايةِ الإسلام ومجيء نصر الله تعالى وكسر المشركين وأوثانهم .

ثم انتبه إلى تناسق آيات القرآن ، فقد عدّد الله نعمه الكونية على الناس التي لو تفكروا فيها لما وقع منهم اختلافٌ في النبأ العظيم .

فقد انتقل السياق إلى بيان صحة ما جاء القرآن به ، والقرآنُ هو الكتاب المنطوق ومما يدل على صحته النظر إلى الكون وهو الكتاب المنظور ؛ إذ دلَّهم على قدرته على البعث حينما ذَكَرَ هَاهُنَا مِنْ عَجَائِبِ مَخْلُوقَاتِهِ أُمُورًا فَأَوَّلُهَا : ((أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا)) استفهامُ تقريرٍ يحفز العقول على النظر والتفكير ، وقد جاءت العبارة بصيغة سؤال لأجل المشاركة في صياغة الجواب وتوظيف القدرة الذهنية وإعمال العقل . قال ابنُ جزيٍّ يرحمه الله تعالى : ((وإنَّما ذكر الله تعالى هنا هذه المخلوقات على جهة التوقيف (السؤال) ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من البعث كأنَّه يقول : إنَّ الإله الذي قدر على خلقة هذه المخلوقات العظام قادرٌ على إحياء الناس بعد موتهم ، ويحتمل أنَّه ذكرها حجة على التوحيد ؛ لأنَّ الذي خلق هذه المخلوقات هو الإله وحده لا شريك له)) .

وتأملوا أيها الأخوة كيف أنَّ الله يمنُّ على عباده أنَّه جعلَ الأرضَ ممهدةً للخلق على حسب حاجتهم ، فهي ليستْ صلبةً لا يستطيعون حرثها ، ويصعب المشي عليها ، وهي ليستْ باللينة الرخوة التي لا ينتفعون بها ولا يستقرون عليها ، بل هي ممهدةٌ وتصلح لأنْ تكون عليها حوائجهم من مسير وبناء وترتيب . فالآيةُ ((أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا)) معناه : أنَّها لهم كالمهد للصبي : وهو ما يمهد له فينوّم عليه وَمَعْنَاهُ : أَنَّ الْأَرْضَ لِلْخَلْقِ كَالْمَهْدِ لِلصَّبِيِّ ، قال تعالى : ((جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً))

ثم في الآية إشارة إلى خلق الأرض ، وإلى جعلها ممهدةً للحياة بعد خلقها كما قال تعالى : ((وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)) أي : بعد خلقها دُحيت ومهدتْ لأجل أنْ تكون صالحةً للحياة ، ولذلك كلما وقفتَ على الأرض فتفكر أنَّ الأرض مهدٌ للإنسان .وكما أنَّها مهادٌ للأحياء فهي مهادٌ للأموات قال تعالى : ((أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتًا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا)) أي : وعاءً ، فالأرضُ وعاءٌ للأحياءِ والأموات ، وهي مهادٌ للأحياء والأموات ، وهي مستودعٌ تودعُ فيها الأجساد والعظام ثم تؤدي ما استودعت ، قال تعالى : ((وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ)) .

أيها الأخوة : يقول ربنا سبحانه وتعالى مُعدّداً نِعَمه وأياديه على الناس ، وإحسانه إليهم ، وكفرانهم ما أنعم به عليهم ، ومتوعدهم بما أعدّ لهم عند ورودهم عليه من صنوف عقابه ، وأليم عذابه ، فقال تعالى : (أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ) أي : لكم (مِهادًا) تمتدونها وتفترشونها.

وانظر إلى جمال القرآن وجلاله فكما في قوله : ((مِهَادًا)) ذكر ربنا أنَّه جعل الأرض مهاداً ؛ فإنَّه جعل هذه الآية تمهيداً لذكر البعث والنشور .

وبعد أنْ ذكرَ اللهُ الأرضَ ذكرَ الجبال ، وهي مِنْ معالم الأرض القوية ، وهي مضربُ المثل للقوة ، ولها في حياة الناس فوائد عظيمة ؛ فهي أوتادٌ للأرض تثبتها أنْ تميدَ وتتحرك .

فقال تعالى : ((**والجبال أوتاداً**)) إي : إنَّ الله سبحانه وتعالى قد جعلها أوتاداً للأرض فهي بمنزلة الوتد للخيمة حيث يلزمها فتثبت به .

وقد أبان الله عن هذه النعمة الكونية والآية الربانية في غير موضع كما قال تعالى : ((وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)) فصلت (١٠) ثم إنَّ هذه الجبال قد ثبت لنا بالتجربة أنَّ لها جذوراً في الأرض ، فلِكل جبل وتدُهُ النازل في الأرض ليُثَبِّت الأرض أنْ تميد وتضطرب ، ويثبت هذا الجبل بالوتد أي : بالجذر فلا تزيله الرياح فهما آيتان آيةٌ ظاهرة وآيةٌ باطنة .

ونعمة (الجبال أوتاداً) متممة لنعمة (الأرض مهاداً) ، والقرآن له عطاء إلى أنْ تقوم الساعة فما زال العلماء يكتشفون فوائد الجبال وأنَّ لها جذوراً .

وإنَّما كانت الجبال أوتاداً ؛ لأنَّ بروزها في الأرض كبروز الأوتاد المغروزة فيها ، ولأنَّها في تثبيت الأرض ومنعها من الميّدان والاضطراب ، كالأوتاد في حفظ الخيمة من مثل ذلك .

ولولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من الموادّ الدائمة الجيشان ، فعلى الأرض نعم ظاهرة وفي باطنها نعم باهرة .

وقال تعالى : ((وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)) وقد تغير السياق من الاستفهام إلى الخبر تنويعاً .

ومعنى أزواجاً ، أي : أصنافاً وأنواعاً وأشباهاً ذكراً وأنثى والناس غنيٌّ وفقيرٌ صحيحٌ ومريضٌ قويٌّ وضعيفٌ أميرٌ ومأمورٌ عالمٌ وجاهلٌ قال تعالى : ((ومن كل شيء جعلنا زوجين)) أي : في الألوان وفي الأعداد وفي الأحوال ، فالْمُرَادُ مِنْهُ كُلُّ زَوْجَيْنِ وَ كُلُّ مُتَقَابِلَيْنِ مِنَ الْقَبِيحِ وَالْحَسَنِ وَالطَّوِيلِ

وَالْقَصِيرِ وَجَمِيعُ الْمُتَقَابِلَاتِ وَالْأَضْدَاد ، وفي ذلكم حكمٌ وابتلاءُ بعضِهم ببعض ، مع التكامل في الحياة ليتنوع الناس في عمارة الأرض ، قال تعالى : ((وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا)) وقال تعالى : ((وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)) .

ثم إِنَّ هَذَا التنوعَ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ الإلهية وَنِهَايَةِ الْحِكْمَةِ حَتَّى يَصِحَّ الِابْتِلَاءُ وَالِامْتِحَانُ، فَيَتَعَبَّدَ الْفَاضِلُ بِالشُّكْرِ وَالْمَفْضُولُ بِالصَّبْرِ وَيُتَعَرَّفَ حَقِيقَةُ كُلِّ شَيْءٍ بِضِدِّهِ، فَالْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرَ الشَّبَابِ عِنْدَ المشيبِ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ قَدْرُ الْأَمْنِ عِنْدَ الْخَوْفِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَعْرِيفِ النِّعَمِ ، ولله في خلقه حكم .

وقد جعل الله جعل الناس ذكوراً وأناثاً ؛ ليتم الائتلاف ويدوم النوع ويخلف الأبناء الآباء ؛ لبقاء الذرية .

وعند هذه الآية ((وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا)) يستذكر المرء أنَّه مخلوقٌ ويعمل لأداء حق الخالق ، والله سبحانه وتعالى لما خلق الناس أزواجاً ، وذكر هذه الآية والنعمة أظهر لنا أنَّه خلقنا أصنافاً من ذكر وأنثى وصغير وكبير وأسود وأحمر وشقي وسعيد .

فهم أزواجٌ مختلفونَ على ما أراده الله من حكمة في عباده ، ليعتبر الناس بقدرته ويستدلوا بذلك على وحدانيته . وفي الحياة مقدمات تدل على قدرته الهائلة ، وأنَّه القادر على فعل ذلك حينما جعل الناس ، وهم من أب وأم واحد قال تعالى : ((**يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**)) . قادرٌ أنْ ضم على هذه الأصناف المتنوعة المتباينة ، ثم هذا التنوع والتباين ، فهي مصلحة للبشر كما في مصلحة التزاوج .

فالله سبحانه وتعالى خلقنا أزواجًا لنتعاون على أمور الحياة وأمور الآخرة ، وليقوم الرجل بوظيفته من العمل والكسب والرعاية والحماية والتعليم ، ولتقوم المرأةُ بوظيفتها من التربية والتهذيب وشؤون المنزل وأمورِ الزوج والأطفال وحفظِ البيت ، ولِتعاون الرجلَ في هذه الأمور التي خلقت لأجلها، ولولا التعاون بين الرجل والمرأة ، لاختل نظام الحياة ، ولعاش كل واحد منهما في شقاء

وعناء ، فسبحان الله الذي خلقنا أزواجًا ، والحمد لله الذي جعل بيننا مودة ورحمة ، وجعل كلًّا منا سكنًا لصاحبه، فله الحمد، وله الشكر، وله الثناء الحسن على ما أنعم به وتكرم .

ففي الآية اسْتِدْلَالٌ عَلَى عَظِيمِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَامْتِنَانٌ عَلَى النَّاسِ بِأَنَّهُ خَلَقَهُمْ ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُمْ بِحَالَةٍ تَجْعَلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الصِّنْفَيْنِ مَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ لَهُ زَوْجًا ؛ لِيَحْصُلَ التَّعَاوُنُ وَالتَّشَارُكُ فِي الْأُنْسِ وَالتَّنَعُّمِ ، قَالَ تَعَالَى : ((وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)) .

ثم قال تعالى : ((**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا**)) فالنومُ نعمةٌ عظيمةٌ من الله يستعيد به الإنسان نشاطه وقوته ، وقد جاء التعبير بالسبات ، وهو القطع أي : أنَّ النوم يقطع حياة الإنسان وتفاعل الحياة وفيه إلماحٌ أنَّ النوم سلطانٌ حتى على السلطان ، فمع الإشارة إلى نعمة النوم إشارة أخرى إلى ضعف الإنسان وافتقاره إلى تجديد الطاقة ، ولذلك فإنَّ النوم ينقل الإنسان إلى حياة أخرى فيها أحلامٌ ورؤى .

ومن رحمة الله أنَّ النوم نعمةٌ تغدقُ على الإنسان طاقةً وحيويةً ونشاطاً ، والنائم له أنْ يقطع النوم ليباشر حياته ، والنوم من ضرويات الحياة لصحة البدن وبقاء التفكير .

فالنوم يلجىء الْإِنْسَانَ إِلَى قَطْعِ الْعَمَلِ لِتَحْصُلَ رَاحَةٌ لِمَجْمُوعِهِ الْعَصَبِيِّ الَّذِي رُكْنُهُ فِي الدِّمَاغِ، وبِتِلْكَ الرَّاحَةِ يَسْتَجِدُّ الْعَصَبُ قُوَاهُ الَّتِي أَوْهَنَهَا عَمَلُ الْحَوَاسِّ وَحَرَكَاتُ الْأَعْضَاءِ وَأَعْمَالُهَا ، بِحَيْثُ لَوْ تَعَلَّقَتْ رَغْبَةُ أَحَدٍ بِالسَّهَرِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَنْ يَغْلِبَهُ النَّوْمُ ، وَذَلِكَ لُطْفٌ بِالْإِنْسَانِ بِحَيْثُ يَحْصُلُ لَهُ مَا بِهِ مَنْفَعَةُ مَدَارِكِهِ قَسْرًا عَلَيْهِ لِئَلَّا يَتَهَاوَنَ بِهِ .

فقوله : ((**وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا**)) أي : قاطعاً للتعب ، فالنومُ نعمةٌ من الله ؛ إذ هو يقطع ما سبقه من التعب فتستريح الأعضاء والخلايا في جسم الإنسان ، ويستجد الإنسان نشاطه من جديد ، وقد ذكر الله آية النوم ونعمةَ النوم في مواضع من كتابه فمنها قوله سبحانه : ((**وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**)) فالنومُ أحد الموتتين ، على أنَّه نعمة من نعم الله الكبرى ، فإنَّ نوم ساعات يريح القوى ، ويجدد النشاط، ويعيد القوة والحيوية للإنسان فمعنى الآية : جعلنا نومكم كالموت ، والمادة تدل على القطع فالنوم يقطع التعب والألم ، والموت يقطع الحياة ، والمراد : جعلنا نومكم راحة لكم .

(وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً) أي راحة ودعة ، يُريح القوى من تعبها ويُعيد إليها ما فُقد منها ، فتأمل هذه النعمة التي لا تستغني عنها أيَّ يوم ، والذي ينعم بهذه النعم لا يمكن أن يهملها ويتركها سدى ؛ فبالنوم تتجدد القوى، وينشط العقل والجسم وينعم الشكل بالجمال .

وكما أنَّ نعمة النوم تتكرر فكرروا فهم معنى هذه الآية ، أي : وجعلنا نومكم لكم راحة ودَعة، تهدءون به وتسكنون، كأنَّكم أموات لا تشعرون، وأنتم أحياء لم تفارقكم الأرواح .

ثم قال سبحانه وتعالى دالاً على العظمة : ((**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا**)) فالليلُ لباسٌ للأرض يغطيها بالظلمة ، وهو سكنٌ للأنفس والأبدان ، وتأمل ما تضفيه الآية من طمأنينة : ((وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا)) أي : كذلك يبين الله آياته ويعدد علينا نعمه فقد جعل الله الليل بمنزلة اللباس كأنَّ الأرض تلبسه فيكون جلباباً لها. يلبس كلَّ شيءٍ بسواده ، قال الرازي يرحمه الله : ((وَأَيْضًا فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ بِسَبَبِ اللِّبَاسِ يَزْدَادُ جَمَالُهُ وَتَتَكَامَلُ قُوَّتُهُ وَيَنْدَفِعُ عَنْهُ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، فَكَذَا لِبَاسُ اللَّيْلِ بِسَبَبِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ مِنَ النَّوْمِ يَزِيدُ فِي جَمَالِ الْإِنْسَانِ ، وَفِي طَرَاوَةِ أَعْضَائِهِ وَفِي تَكَامُلِ قُوَاهُ الْحِسِّيَّةِ وَالْحَرَكِيَّةِ ، وَيَنْدَفِعُ عَنْهُ أَذَى التَّعَبِ الْجُسْمَانِيِّ ، وَأَذَى الْأَفْكَارِ الْمُوحِشَةِ النَّفْسَانِيَّةِ ، فَإِنَّ الْمَرِيضَ إِذَا نَامَ بِاللَّيْلِ وَجَدَ الْخِفَّةَ الْعَظِيمَةَ)) . ففي الظلمة خير!! وفي النور خير .

وعند كل ليلة تأمل قول الله تعالى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً) أي : كاللباس بإحاطة ظلمته بكل أحد ، وستره لهم ، فالمعنى كاللباس في الستر .

ثم قال تعالى : ((**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**)) فهذا تقريرٌ بالنعمة ، وهو أنَّ الله جعل النهار ظرفاً للعمل ووقتاً للكسب . وتأمل ((**وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا**)) أي : معاشاً يعيش الناس فيه في طلب الرزق على حسب درجاتهم وعلى حسب أحوالهم ، وهذا من نعمة الله على العباد .

وعَنْ مُجَاهِدٍ: ((وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)) [النبأ: ١١] يَقُولُ: «يَبْتَغُونَ فِيهِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» وَمَعْنَى كَوْنِ النَّهَارِ مَعَاشًا أَنَّ الْخَلْقَ إِنَّمَا يُمْكِنُهُمُ التَّقَلُّبُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمَكَاسِبِهِمْ فِي النَّهَارِ ، والمعاش : الحياة ، وسميت الحياة معاشاً باسم سببها ، وهو العيش الذي لا حياة لحيٍّ إلا بما يتبلغ به من طعام .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله : ((الم نجعل الأرض مهاداً)) إلى قوله : ((معاشاً)) قال : نِعمٌ من الله يُعدّدها عليك يا ابن آدم لتعمل على أداء شكرها .

ولما جعل النوم موتاً، جعل اليقظة معاشاً، أي: حياةً .

ثم قال تعالى : ((وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا)) وفي ذكر البناء ما يدل على القوة والإحكام كما قال تعالى : ((والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون)) وفي ذكر السماء امتنانٌ من الله وملمحٌ إلى العظمة والقوة على هذه الآية العظيمة التي تدل على الخالق .

والسموات سبعٌ ، وقد خلقهنَّ الله شداداً ، أي : قويةً محكمةً محصنةً ، فـ(سَبْعاً) أي : سبع سماوات (شِداداً) جمع شديدة ، يعنى : محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان ، وهي طباقٌ أي : بعضها فوق بعض .

(شداداً) أي : هي في غاية القوة والإحكام ، لا صدع فيها ولا فطور ولافتق ، لا يؤثر فيها كر العصور ولا مر الدهور ، حتى يأتي أمر الله بإظهار عظائم المقدور .

((**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً**)) آيةٌ عظيمةٌ وخلقٌ كبيرٌ ، هذه السماء التي فوقنا ، وقد ذكرها الله في كتابه مراتٍ عديدة ، وندب الشارعُ إلى النظر إليها تفكراً وعبادةً ، وقد أحسنَ البخاريُّ في صحيحه إذ قال : ((بَابُ رَفْعِ البَصَرِ إِلَى السَّمَاءِ)) قبيل (٦٢١٤) ؛ إذ النظر إلى السماء عبادة يؤجر عليها المؤمن .

ثم قال تعالى : ((**وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا**)) وقد ذكر اللهُ الشمس وسمّاها سراجاً وهاجاً فهي تضيءُ الكون ، وهي وهاجٌ متوقدٌ ، وفي ذلك إشارةٌ إلى فوائد تلك الشمس بالإنضاج والحرارة تُسهم في حفظ الحياة والإنسان والنبات ، وتحقق البيئة المتوازنة .

وقد جعل الله سبحانه في هذه الكواكب سر الحياة ، فالحرارة والضوء يطردان الأمراض ، وينعشان كلَّ حي ، ولا أدل على هذا مما نشاهد من فتك الأمراض بمن يكون بمنأى عن ضوئها وحرارتها .

((**وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا**)) الشمسُ آيةٌ عظيمةٌ من آيات الله ، وقد خلق الله فيها النفع للعباد فهم يستمدون الطاقة من هذه الشمس بتقدير من الله العزيز الحكيم ، وهي كونُها ذاتُ طاقة

وحرارة عالية فهي سراجٌ مضيءٌ تؤثرُ على النهار ؛ ليصلح أنْ يكون معاشاً ، مع ما فيها من إنضاج الثمار وتنقية الأبدان من التعفن وتقوية العظام وغير ذلك مما يعلمه الله ولا نعلمه ((والله يعلم وأنتم لا تعلمون)) .

وعَنْ مُجَاهِدٍ: {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا} [النبأ: ١٣] قَالَ: «يَتَلَأْلَأُ» .

فَالنَّهَارُ: الزَّمَانُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ ضَوْءُ الشَّمْسِ مُنْتَشِرًا عَلَى جُزْءٍ كَبِيرٍ مِنَ البسيطة ، وَفِي ذلك عِبْرَةٌ بِدِقَّةِ الصُّنْعِ وَإِحْكَامِهِ ، إِذْ جُعِلَ نِظَامَانِ مُخْتَلِفَانِ مَنْشَؤُهُمَا سُطُوعُ نُورِ الشَّمْسِ وَاحْتِجَابُهُ فَوْقَ الْأَرْضِ ، وَهُمَا نعمتان للبشر مُخْتَلِفَتَانِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْآثَارِ فَنِعْمَةُ اللَّيْلِ رَاجِعَةٌ إِلَى الرَّاحَةِ وَالْهُدُوءِ وحصول النفع للأجسام والنباتات ، وَنِعْمَةُ النَّهَارِ رَاجِعَةٌ إِلَى الْعَمَلِ وَالسَّعْيِ ، وهي نعمةٌ لها وظيفة في بناء الأجسام وتكوين الثمر ، والنَّهَارُ يَعْقُبُ اللَّيْلَ فَيَكُونُ الْإِنْسَانُ قَدِ اسْتَجَدَّ رَاحَتَهُ وَاسْتَعَادَ نَشَاطَهُ وَيَتَمَكَّنُ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَعْمَالِ بِسَبَبِ إِبْصَارِ الشُّخُوصِ وَالطُّرُقِ ، فلله الحمد على ما أنعم .

ثم قال تعالى : ((**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**)) ولما ذكر الله نعمةَ الشمس على الخليقة ذكر ربنا نعمةً من النعم هي أثرٌ من آثار نعمة الشمس ، فشعاعُ الشمس يبخر ماء البحر ليصير غيثاً ومطراً ، وفي التعبير بـ(**أنزلنا**) إشعارٌ بأنَّ كلَّ ذرةٍ من ذرات المطر هي بقدر من الله كما قال تعالى : (**وأنَّ إلى ربك المنتهى**) وقال تعالى : ((**وما ننزله إلا بقدر معلوم**)) وماءُ المطر رحمةٌ من عند الله وغيث يغيث به عباده .

والمعصرات هي السحب التي تحمل ماء المطر .

وفي قوله تعالى عن المطر بأنَّه (**ثجاج**) تأكيدٌ على حال نزول هذه النعمة ، وأنَّ الله ينزله على حسب حاجة العباد رحمةً ورزقاً . قال ابن عباس عن قوله ((ثجاج)) : ((الكثير الذي يَنبت منه الزرع)) . وعَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: " الثَّجَّاجُ: الْمُنْصَبُّ، يَقُولُ: مَاءً مُنْصَبًّا "

وَأخرج الشَّافِعِي وَسَعِيد بن مَنْصُور وَعبد بن حميد وَابْن الْمُنْذر وَابْن مرْدَوَيْه والخرائطي وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنه عَن ابْن مَسْعُود فِي قَوْله: {وأنزلنا من المعصرات مَاء ثجاجاً} قَالَ: يبْعَثُ اللهُ سحاباً فَتحمل المَاء من السَّمَاء فتمر بِهِ السَّحَاب فتدر كَمَا تدر اللقحة والثجاج ينزل من السَّمَاء أَمْثَال العزالي فتصرفه الرِّيَاح فينزل مُتَفَرقًا .

((**وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**)) وقد ساق اللهُ هذه الآية العظيمة والنعمة الكبيرة بعد أنَّ ذكر السراج الوهاج الذي به الحرارة واليبوسة ، ذكر هذه النعمة نعمةَ الماء التي لا يستغني عنها مخلوقٌ مبيّناً قدرته سبحانه في هذا التكوين الذي فيه الرطوبة والبرودة ، فالرطوبة والبرودة مع الحرارة واليبوسة من الأزواج التي تم الإشارة إليها ، ثم إذا اجتمعت هذه الآيات أدى إلى انضاج الثمار ونحوها وجعلها أشكالاً .

وسميتِ السحبُ بالمعصرات ؛ لأنَّها تَعصر المطر عند نزوله كما يُعصرُ الثوب فإنَّ هذا الماء ينزل من السحاب ويخرج منه كما يخرج من الثوب المعصور ثم بين سبحانه كيفيته فقال : ((ثَجَّاجًا)) أي : كثير الثج يعني يتدفق تدفقاً متتابعاً حتى يروي الأرض .

«وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً» المعصرات: هى السحب التي يتحلب منها الماء، أشبه بالثوب المبلول، يعتصر، فيتساقط الماء منه ، وَوَصْفُ الْمَاءِ هُنَا بِالثَّجَّاجِ لِلِامْتِنَانِ.

وفى وصف السحب بأنَّها مُعصرات إشارةً إلى أنَّ الماء الذي تحمله متلبسٌ بها ، مندسٌّ فى كيانها ، بل هى فى حقيقتها ماءٌ، ووعاءٌ معاً ، فتأمل قدرة الباري .

والثجاج وكذا السحاح المتدفق .

قال ابن كثير في البداية والنهاية : ((وَأَمَّا الْأَنْهَارُ فَاقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونَ مَاؤُهَا حُلْوًا عَذْبًا جَارِيًا فُرَاتًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ، وَجَعَلَهَا جَارِيَةً سَارِحَةً يُنْبِعُهَا تَعَالَى فِي أَرْضٍ ، وَيَسُوقُهَا إِلَى أُخْرَى رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَمِنْهَا كِبَارٌ وَمِنْهَا صِغَارٌ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ وَالْمَصْلَحَةِ)) .

ولا بد من النظر إلى هذه النعم وإعمال الفكرة فيها ، قال تعالى : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ)) ففي هذه السورة ذكر جَلَائِلِ النِّعَم .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية أيضاً : ((فَالْبَحْرُ الْمُحِيطُ بِسَائِرِ أَرْجَاءِ الْأَرْضِ وَمَا ينبت مِنْهُ فِي جَوَانِبِهَا الْجَمِيعُ مَالِحُ الطَّعْمِ مُرٌّ ، وَفِي هَذَا حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ لِصِحَّةِ الْهَوَاءِ إِذْ لَوْ كَانَ حُلْوًا لَأَنْتَنَ الْجَوُّ وَفَسَدَ الْهَوَاءُ بسبب ما يموت فيه من الحيوانات فكان يؤدي إلى تفاني بني آدم ولكن اقتضت الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لِهَذِهِ الْمَصْلَحَةِ)) فسبحان من جعل النهر حلواً والبحر مالحاً .

ثم بين سبحانه الحكمة من إنزال الماء الثجاج ((**لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا**)) أي :لنخرج بهذا الماء الذي أنزلناه من السماء حباً ونباتاً ، فتنبت الأرض وتخرج بإذن الله الحب بأنواعه من البر والشعير والذرة وتخرج النبات من الثمار كالتين والعنب . {لِنُخْرِجَ بِهِ} أي : بذلك الماء ؛ أي: بسبب وصوله إلى الأرض ، واختلاطه بها وبما فيها، وهذه اللام لام المصلحة .

يتمطر السحب ثجاجاً ليخرج الله به ثلاثة أقسام :

أولاً : الحب : كالقمح والشعير والذرة .

ثانياً : النبات كالحشيش والكلأ .

ثالثاً : الشجر كالنخل والزيتون .

هو بيانٌ لما يتولد من هذا الماء المتدفق من السحب ، فبهذا الماء يخرج الله الحب والنبات ، ومنه يخرج هذه الجنَّات المتشابكة الأغصان ، المتعانقة الأفنان .

واللهُ سبحانه قادرٌ على أنْ يخرج النباتَ من غير ماء ، ولكنْ أقام سبحانه نظام الوجود على أسباب ومسبَبات فمنه سبحانه الأسباب ، ومنه تبارك اسمه المسببات .

والحب : ما يقتات منه الناس ، كالبرّ ، والشعير ، والقمح ، والذرة ، والأرز ، ونحو ذلك.

والنبات : ما تأكل منه الأنعام ، كالكلأ ونحوه ، وما تأكله الأنعام آيلٌ نفعه لبني الإنسان لحماً وبيضاً وألباناً.

: ((**لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا**)) فيه حكمةُ الباري في خروج النبات تدريجياً شيئاً فشيئاً.

وقوله (ونباتاً) هو الأخضر من النبات ، وهو شاملٌ لطعام الإنسان وطعام الحيوان الذي يؤول نفعه للإنسان . قال الرازي : ((وَإِنَّمَا قَدَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَبَّ لِأَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْغِذَاءِ ، وَإِنَّمَا ثَنَّى

بِالنَّبَاتِ لِاحْتِيَاجِ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا أَخَّرَ الْجَنَّاتِ فِي الذِّكْرِ لِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الْفَوَاكِهِ لَيْسَتْ ضَرُورِيَّةً)) .

اليقظة بعد النوم أنموذجٌ للبعث بعد الموت ، يشاهدونها كل يوم ، وكذا إخراج الحب والنبات من الأرض الميتة ، يعاينونه كل حين ، كأنه قيل : ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقية والأنفسية الدالة بفنون الدلالات على حقية البعث الموجبة للإيمان به، فمالكم تخوضون فيه إنكارًا ، وما لكم تكذبون بالنبأ العظيم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ((**وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا**)) أي : بساتين ملتفةً يلتفُ بعضُها على بعض من كثرتها وحسنها وبهائها ، وعَنْ مُجَاهِدٍ: {وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا} [النبأ: ١٦] قَالَ: " يَقُولُ: جَنَّاتٍ مُلْتَفَّةً "

سميت البساتين جنَّات ؛ لأنَّها تجنُ منْ بداخلها ، أي : تستره .

وقوله تعالى : ((**وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا**)) ويدخل في ذلك الفواكه وفيها إشارة إلى نعمة الجمال والخضرة وحسن المنظر ، فهي جنَّاتٌ ملتفٌ بعضُها على بعض .

ولما ذكر اللهُ جناتِ الدنيا وبساتينها أشار إلى أنَّها تذهب وأنَّ على المرء أنْ يعمل لجنَّاتٍ تبقى ، وعليه أنْ يستعد بالعمل الصالح لجنَّاتِ الآخرة فانتقل السياق قال تعالى : ((**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا**)) ، وقد سمّى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بأسماء عديدة ، وقد جاء الاسم هنا ((يوم الفصل)) إشارةٌ إلى ملمحٍ مهمٍ وهو أنَّ الدنيا ليستْ بفصل أخير ، بل ثمة فصولٌ بعدها والفصل الرئيس يوم القيامة يوم يقومُ الناسُ لربِ العالمين ، فيقوم الأشهاد بالشهادة ويقام الحكم بالعدل وهناك الفصل بالحق ، فيفصل الله بين الخلائق فيما كذبوا به ، وفيما اختلفوا فيه ويفصل الله بين العباد في مظالمهم وحقوقهم ويقتص لبعضهم من بعض . إذن الآخرة الفصل الأكبر والفصل الأخير والفصل الدائم . ولما دخلتِ الألف واللام على كلمة (الفصل) دل على الاستيعاب والشمول. فالفصل يوم القيامة من رحمة الله ونحن نقرأ في الصلاة ((الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)) وقال تعالى : ((قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)) فمن أظهر مظاهر الرحمة أن جعل للعباد يوماً يفصل بينهم بالجزاء والحساب والقصاص .

وسُمي الفصل فصلاً ؛ لأنَّ الأمور تفصل فيه وتحسم ؛ ولذلك فإنَّ الذي أبدع الكون ستلقاه في يوم الفصل .

أخرج عبد بن حميد وَابْن جرير وَابْن الْمُنْذر عَن قَتَادَة {إِن يَوْم الْفَصْل كَانَ ميقاتاً} قَالَ: هُوَ يَوْم عَظَّمَه اللهُ ، وَهُوَ يَوْمٌ يفصل فِيهِ بَين الْأَوَّلين والآخرين .

والميقات- بزنة مفعال- مشتق من الوقت ، وهو الزمان المحدد لفعل ما .

وقوله تعالى ((**ميقاتا**)) معناهُ أنَّ له وقتاً محدداً لا يتقدم ولا يتأخر ، وقد اختص الله بميقاته ولم يُعلم أحداً من خلقه ، ثم ذكر ربنا شيئاً من وقائع ذلك اليوم .

قال تعالى : ((**يوم ينفخ في الصور فتأتون افواجا**)) وفي هذه الآية الكريمة إشارةٌ إلى أنَّ الإنسان هو المقصود الأول من خلق هذا الكون ؛ إذ إنَّ الله بدأ السياق في الحديث عنه فقال (**فتأتون أفواجا**) فهو وإن كان غير الإنسان يقتص منه كما قال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) فالحساب والجزاء والقصاص المقصود الأول به الإنسان والمقصود في الآية بالنفخ في الصور النفخ للحياة ، والصور هو قرنٌ يَنفخُ فيه الملك بأمرٍ من الله تعالى وتأمل الفاء في قوله : ((**فتأتون**)) فبمجرد ما ينفخ فيه يحشر الناس إلى ربهم أفواجاً أفواجاً ويصدر الناس من قبورهم أشتاتاً أشتاتاً.

في قوله : ((**فتاتون افواجا**)) أي : جماعات كل أمة تدعى إلى كتابها وتقرن النفوس مع أمثالها وأشباهها ، وعَنْ مُجَاهِدٍ: {فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} [النبأ: ١٨] «زُمَرًا زُمَرًا»

إذن ف((**فتاتون افواجا**)) أي : من القبور إلى الموقف أمماً كل أمّة مع إمامهم ، جماعات مختلفة .

ثم قال تعالى : ((**وفتحت السماء فكانت أبوابا**)) أي : شققت ومزقت وانفطرت وكشطت فأصبحت أبواباً تنزل منها الملائكة للمهمات التي يأمرها الله بها ، وننتفع من الآية الكريمة أنَّ السماء وإنْ كانت سقفاً للأرض إلا أنَّها ليستْ مقصورةً على هذه المهمة ، بل هي عالمٌ آخر هائل ظخم ؛ ولهذا عبّر عنها ربنا بالبناء ونلتمس العظمة والقوة فالسماء على شدتها وقوة بنائها تتشقق وتصير أبواباً لنزول الملائكة .

((**وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا**)) وقد ذكر الله في الآية (١٢) : ((**وبنينا فوقكم سبعاً شداداً**)) فهذه السموات السبع الشديدة العظيمة تفتح وتنفرج ؛ فتصبح أبواباً يشاهدها الناس تنزل الملائكة بأمر ربها بعد أن كانت السماء سقفاً محفوظاً ؛ لذا قال تعالى عن السماء : ((**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ**)) .

(**يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً**) النافخُ هو الملكُ الموكلُ الذي يأمره الله سبحانه وتعالى وفي تفصيل هذا تأكيدٌ للاستعداد لذلك اليوم العظيم ، فينفخ الملك نفختين بأمر الله الأولى يموت فيها الناس والثانية يبعثون من قبورهم فتعود إليهم أرواحهم ؛ إذ يحيون فيأتون أفواجاً .

وَحَذْفُ مَا يَحْصُلُ بَيْنَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَبَيْنَ حُضُورِهِمْ لِزِيَادَةِ الإيذان بِسُرْعَة حصول الْإِتْيَانِ حَتَّى كَأَنَّهُ يَحْصُلُ عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّور وَإِن كَانَ الْمَعْنى : يَنْفخ فِي الصُّورِ فَتَحْيَوْنَ فَتَسِيرُونَ فَتَأْتُونَ. وَبُنِيَ الفعل (يُنْفَخُ) إِلَى النَّائِبِ لِعَدَمِ تَعَلُّقِ الْغَرَضِ بِمَعْرِفَةِ النَّافِخِ وَإِنَّمَا الْغَرَضُ مَعْرِفَةُ هَذَا الْحَادِثِ الْعَظِيمِ وَصُورَةِ حُصُولِهِ.

أيها الأخوة انتبهوا للسياق والسباق فلمّا عدّد الله النِّعم على عباده فإنَّما عدد ليعملوا على أداء شكرها ، وأنَّه سبحانه وتعالى سائلهم عن هذه النعم قال تعالى : ((**إن يوم الفصل كان ميقاتاً**)) فبين سبحانه وتعالى أنَّ وراء هذه النعم طالباً يسألهم عن النقير والقليل والكثير والقطمير في يوم وقتّه عليهم لا يعلمه إلا هو ، وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وسمّاه سبحانه وتعالى بيوم الفصل ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يفصل فيه بين العباد فيما شجر بينهم وفيما كانوا فيه يختلفون ، وفي مظالم كان بينهم حتى ولو كانتْ يسيرةً فيما يظنون ويفصل الله بين أهل الحق والباطل وأهل الكفر والإيمان وأهل العدوان والاعتدال وبين أهل الحسنات والسيئات وبين أهل الجنة والنار .

ثم إنَّ ذكرَ الميقات المحدود فيه تخويفٌ منَ الله لعباده كيف أنَّ أنفاسك وأوقاتك أيها المفرط تسوقُك إلى يوم الفصل وتذهبُ بك سريعاً حتى تنتهي بك إلى آخر لحظة ، وفي سورة هود تلكم السورة قوية المواعظ قال الله فيها عن يوم الفصل : ((وما نؤخره إلا لأجل معدود)) ومعلوم لدى كل لبيب أنَّ المعدود ينتهي .

وتأمل في الآية الفصل ، الفصل : بونُ ما بين الشيئين ، وقال ابن سيدة : الفصل الحاجز بين الشيئين .

قال الراغب : الفصل إبانةُ أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة ، وفَصَل القوم عن مكان كذا وانفصلوا فارقوه .

فهو إذن اليوم الذي يبين الحق من الباطل ، ويُفصل فيه بين الناس فيه بالحكم .

المعنى اللغوي : القطع والحجز بين الشيئين .

الإسلامي : يوم الحساب يبين فيه الحق من الباطل .

ثم قال تعالى مبيناً هول يوم القيامة (**وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**) فهذه الجبال التي نراها عظيمةً ، وهي مثلٌ في التشبيه على القوة والصلابة تطيش يوم القيامة ،. وَالسَّرَابُ: مَا يَلُوحُ فِي الصَّحَارِي مِمَّا يُشْبِهُ الْمَاءَ وَلَيْسَ بِمَاءٍ وَلَكِنَّهُ حَالَةٌ فِي الْجَوِّ الْقَرِيبِ تَنْشَأُ مِنْ تَرَاكُمِ أَبْخِرَةٍ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ **،** فتصير الجبال حينذاك كلا شيء **.**

(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) عودٌ على بدء فهذه الجبال القوية التي جعلها الله كالأوتاد للأرض وتقوم بوظيفة في الأرض تنهال وتكون كالسراب .

(وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ) أي : حُمِلتْ فَكانَتْ سَراباً عبارة عن تلاشيها وفنائها والسراب في اللغة : ما يظهر على البعد أنَّه ماءٌ ، وليس ذلك المراد هنا ، وإنَّما هو تشبيهٌ في أنَّه لا شيء.

المعنى : ونُسفت الجبال فاجتثت من أصولها، فصيرت هباء منبثاً ، لعين الناظر ، كالسراب الذي يظنّ من يراه من بُعد ماء، وهو في الحقيقة هبا ء.

ذكرَ اللهُ ما بعده منْ أهوال جهنَّم فقال الله سبحانه وتعالى : (**(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)**)

فيكول ما يكون من أهوال تمهيداً لهول جهنَّم أعاذني الله وإياكم منها وتأمل كيف وصفها الله بـ(مرصادا) فهي تترصد وتتربص بمن وعدتْ بهم حال كونها تكادُ تميزُ من الغيظ وتأمل قوله تعالى (**(إن ربك لبالمرصاد)**) وفي قوله تعالى (**إن جهنم كانت مرصادا**) دليلٌ أنَّ الناسَ كلَّهم سوف يمرون عليها ؛ إذ إنَّ الصراط جسرٌ منصوب على متن جهنَّم ، فالناس يمرون عليه جميعاً لكنْ ثمةَ فرقٌ بين من يمر كلمح البصر ، ومن يسقط ويهوي أجارنا الله وإياكم .

وَأخرج عبد بن حميد وَابْن جرير وَابْن الْمُنْذر عَن الْحسن فِي قَوْله: {إِن جَهَنَّم كَانَت مرصاداً}

قَالَ: لَا يدْخل الْجنَّة أحد حَتَّى يجتاز النَّار .

مرصاداً : ترصد من عصى الله .

وبعد هذه الأهوال العظيمة ليوم القيامة ذكر ربنا مصير أولئك المقصرين في أداء حق الله فقال : ((**إن جهنم كانت مرصاداً**)) ولذا فإنَّ عذاب المقصر في جنب الله لا يكفيه شدة الهول في عرصات البعث, بل إنَّ الله قد خلق ناراً تلظى أرصدها الله لمن تجاوز الحد فيما أذن الله فيه دار الاختبار والامتحان , فهي مرصادٌ , أي : مرصدة ومعدة للطاغين وسُميت جهنَّم بجهنم ؛ لأنَّها ذاتُ جهمةٍ وظلمةٍ بسوادها وقعرها .

قال ابن كثير : ((يَعْنِي: أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ حَتَّى يَجْتَازَ بِالنَّارِ ، فَإِنْ كَانَ مَعَهُ جَوَازٌ نَجَا ، وَإِلَّا احْتَبَس)) .

وطغيانُ الإنسان فيما إذا جاوز حده في ترك العبودية الحقة كما قال تعالى: ((**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**)) والإنسان إذا طغى وقصر في العبادات أو قصر في حقوق العباد التي أمر الله بها فهو مسؤول عن كل ذلك ، ومن جميل العبارة كلام ابن كثير في تفسير الطاغين : ((هُمُ: المَرَدة الْعُصَاةُ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسل)) فالطُّغْيَانُ: تَجَاوُزُ الْحَدِّ فِي عَدَمِ الِاكْتِرَاثِ بِحَقِّ الْغَيْرِ وَالْكِبْرِ .

فقوله تعالى(لِلطَّاغِينَ مَآبًا) وفي هذه الآية بيانُ سبب العذاب ، وهو بطرُ الحق وغمط الناس . والطغيان هو مجاوزة الحد ، وفي ذلك تهديدٌ في كل ما يُتجاوز حدُّهُ ، وقد جعل الله النار مآبا للطغاة ، أي : مرجعاً فمهما طال الزمن أو قصر فمصيرُهم إلى الجحيم قال تعالى : ((**ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ**)) .

وقوله ((**لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا**)) بيانٌ لخلود من حق عليه الخلود ، أي : ماكثين دهوراً متتابعةً لانهاية لها .

الأحقاب ما لا انقطاع له ، فكلما مضى حقب جاء بعده حقب آخر . فعَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «لَيْسَ لِلْأَحْقَابِ أَجَلٌ وَلَا غَايَةٌ ، كُلَّمَا مَضَى حِقْبٌ دَخَلَ حِقْبٌ» .

(أحقاباً) فيه الإشارة إلى العقوبة على الوقت الذي أضاعوه في الدنيا ، وعلى العمر الذي فرطوا فيه فهم كما أسرفوا في الوقت عوقبوا بالمكث في السعير أحقاباً متوالية لا انتهاء لها .

ثم بين ربنا لوناً من ألوان العذاب فقال تعالى : ((**لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا**)) أي إنَّهم في نار وحرارة ولا ينالون البرودة التي يتمنونها فالبروة تخفف عنهم من لهب النار ولا يذوقون الماء البارد ولا يذوقون النوم الذي يخفف عنهم أو ينسيهم ، قال ابن كثير : ((أَيْ : لَا يَجِدُونَ فِي جَهنَّم بَرْدًا لِقُلُوبِهِمْ، وَلَا شَرَابًا طَيِّبًا يَتَغَذَّوْنَ بِهِ)) .

ثم بين ربنا ما يحصل لهم بدل ذلك فقال : ((**إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا**)) فالحميمُ هوا الماء الحار وقد فسره قوله تعالى ((**وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**)) فالماءُ إذا غُلي سُمي حميماً .

والغسّاق : هو الشراب النتنُ ، وهو صديدُ أهل النار ، فهو شرابٌ منتنٌ يشربونه جزاءً وفاقاً على ما كانوا يتلذذون به في الدنيا مما حرّم الله من المطاعم والمشارب المحرمة والشهوات الممنوعة ، قال ابن كثير : ((فَأَمَّا الْحَمِيمُ: فَهُوَ الْحَارُّ الَّذِي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ وحُموه. والغَسَّاق: هُوَ مَا اجْتَمَعَ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ وَعَرَقِهِمْ وَدُمُوعِهِمْ وَجُرُوحِهِمْ، فَهُوَ بَارِدٌ لَا يُسْتَطَاعُ مِنْ بَرْدِهِ، وَلَا يُوَاجَهُ مَنْ نَتْنِهِ)). فـ(حميماً) ماءٌ حارٌ من حميم جهنَّم ، {وغسَّاقاً} وهو ما سال من جلود أهل النَّار ، فهو ما يغسق ، أى : يسيل من صديدهم ، ثم بين ربنا عدله في حكمه فقال (**جَزَاءً وِفَاقًا**) فهذا العقاب الذي ذكر الله منه صوراً هو جزاءٌ موافقٌ لأعمالهم فهو جزاءٌ عادلٌ موافقٌ لما يستحقونه على ما فرّطوا وقصّروا في الحياة الدنيا وعلى ما عبُّوا من الشهوات والسيئات وهذا الجزاء الوفاق يعترف به أهل النار قال تعالى (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) فـ(**جَزَاءً وِفَاقًا**) وَالتَّقْدِيرُ جَزَاءً وَافَقَ أَعْمَالَهُمْ وِفاقاً.

قال الطبري : ((والغسّاق عندي : هو الفعّال ، من قولهم : غَسَقَت عين فلان : إذا سالت دموعها ، وغَسَق الجرح : إذا سال صديده ، ومنه قول الله (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) يعني بالغاسق : الليل إذا لَبِسَ الأشياء وغطاها ، وإنَّما أريد بذلك هجومه على الأشياء ، هجوم السيل السائل ، فإذا كان الغسَّاقُ هو ما وصفتُ من الشيء السائل ، فالواجب أنْ يقال :

الذي وعد الله هؤلاء القوم ، وأخبر أنَّهم يذوقونه في الآخرة من الشراب هو السائل من الزمهرير في جهنم ، الجامع مع شدّة برده النتن)).

ثم بين ربنا تبارك وتعالى سبب دخولهم النار فقال : ((**إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا**)) وجاء التعبير بالرجاء ، وهو يُطلق على ما يحب الإنسان ويأمل ؛ فالعصاة لا يرجون الجنَّة والرضوان ولا يحتسبون الأجر عند الأعمال ، لا يخافون ولا يبالون ؛ وعَنْ مُجَاهِدٍ: {إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا} [النبأ: ٢٧] قَالَ: «لَا يُبَالُونَ الْحِسَابَ، وَلَا يَخَافُونَهُ، وَلَا يُصَدِّقُونَ بِالْغَيْبِ وَالْبَعْثِ»

((**إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا**)) هو بيان للسبب الذي من أجله صاروا إلى هذا المصير الكئيب فمَوْقِعُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَوْقِعُ التَّعْلِيلِ لِجُمْلَةِ إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً إِلَى قَوْلِهِ : ((جَزاءً وِفاقا)) .

والحكمة في لبثهم الدائم في نار جهنم هو أنَّ الكفار لما كان من نيتهم الاستمرار على الكفر كما يشير إليه قوله تعالى ((إنهم كانوا لا يرجون حساباً)) فاستحقوا العذاب الأبدي .

وازع الدين أهم المهمات ، وعلمُ المرءِ أنَّ الله حسيب ورقيب وأنَّ العبد راجع إليه لا محالة من أعظم أسباب صلاح الفرد والمجتمع .

وأهل النار لم يكونوا مقصرين بالأعمال والنيات فقط ، بل كانوا يقترفون السيئات فقال تعالى عنهم ((**وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا**)) فهم قد كذبوا بالآيات القرآنية وكذبوا بالآيات الكونية وقد ذكرت في مطلع السورة ((**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا**))

وذكر المصدر (كذاباً) يدل على أنَّ تكذيبهم كان متكرراً .

كذبوا بآياتنا كذاباً ، جحدوا بها جحوداً .

ثم ذكر الله تبارك وتعالى علمَه المحيطَ بكل شيء فقال : ((**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا**)) فكلُّ عمل من الأعمال مما تعمله الخليقة محصيٌّ ومكتوبٌ ، قال تعالى : ((**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**)) أي في كتاب حافظ .

وربنا يحصي كل شيء من صغير و كبير و نيات ومقاصد ، قال تعالى : **((وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ))** وقال تعالى : **((وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا))** . فـ **((وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا))** تَقْدِيرُهُ أَحْصَيْنَاهُ إِحْصَاءً، وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنْ تِلْكَ اللَّفْظَةِ إِلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ ، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ النِّهَايَةُ فِي قُوَّةِ الْعِلْمِ .

أى : وكلُّ شيءٍ في هذا الكون ، قد أحصيناه إحصاءً تاماً ، بحيث لا يعزب منه شيء عن علمنا ، مهما كان صغيراً.

وقوله تعالى : ((كلّ)) يشمل أعمال الإنسان الأربعة : العمل كالسرقة والزنا ، القول باللسان ، العزمُ المصَمّم ، الترك لما أوجب الله فعله ، وقد بينا هذا بأدلته في شرح صحيح البخاري .

وفي قوله تعالى : ((أحصيناه)) ما يدل على الضبط الدقيق التام ، فربنا يعلم أعمال العباد وهو محصيٌّ عند الملائكة الكتبة الحافظين كمال قال تعالى : **((وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ))** .

وفي قوله ((**كتاباً**)) التأكيد على بيان المحصى من الأعمال أنَّه مكتوبٌ أيضاً .

وإثبات مصدر «كتب» عليه أي أحصيناه إحصاء وكتبناه كتاباً، وذلك الإحصاء والكتب لعدم الظلم.

ثم قال تعالى : **((فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا))** وهذه الآيةُ شديدةٌ على أهل النار أجارنا الله وإياكم ، ومعناها فذوقوا العذاب كما تذوقتم في الدنيا معصيته وذوقوا العذاب كما تذوقتم في الدنيا نعمه ولم تؤدوا شكرها ، وذوقوا العذاب فما هو إلا بدايات وما سيأتي فهو أشد ، فعذاب أهل النار يزيد ، وهذه الآية **((فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا))** فيها نفيٌّ وإثباتٌ فهو نفيُّ أنْ يزيدهم شيءٌ آخرُ أي : فلن يزيدهم رحمةً ولا عفواً ولا مغفرةً ولا نعيماً ولا راحةً ولا تأجيلاً إنَّما سوف يزيدهم عذاباً فقط .

وبعد أنْ ذكر الله الجزاء الوفاق لأهل النار ذكر الله الجزاء والعطاء والفضل منه لأهل الإحسان والطاعة يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ السُّعَدَاءِ وَمَا أَعَدَّ لَهُمْ تَعَالَى مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ : **((إِنَّ**

لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا)) وقد صدّر ربُنا الكلامَ عن مقام أهل البر والإيمان بـ(إنَّ) المؤكدة إشارةٌ إلى عظمةِ هذهِ المكانة ، وَتَقْدِيمُ خَبَرِ إِنَّ عَلَى اسْمِهَا لِلِاهْتِمَامِ بِهِ تَنْوِيهًا بِالْمُتَّقِينَ .

والمتقون هم الذين اتقوا عذاب الله بطاعته ، ولذلك فإنَّ الله جعل كتابه هدى للناس لكن الذين ينتفعون منه هم المتقون فقط .

(مفازاً) أي : فوزاً وموضع فوز وزمان فوز بالراحة الدائمة من جميع ما مضى ذكره للطاغين الذين هم أضدادهم

يقول : إن للمتقين مَنجًى من النار إلى الجنة ، ومخلصاً منها لهم الى الجنة ، وظفراً بما طلبوا.

وَهُوَ الْمَفَازُ الْمُفَسَّرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) .

ولما وصفهم بالمتقين ألمح ربنا أنَّهم كانوا بخلاف الطاغين الذين لا يرجون حساباً وكذبوا بآيات الله ، فالمتقون أيقنوا أنَّ كلَّ شيءٍ يُحصى عليهم فتركوا ما لا يرضي الله وآمنوا بآيات الله وصدقوا بموعوده ووعيده واتعظوا بما حولهم من الآيات الكونية ، فلما كانوا كذلك فازوا ونجوا من النار وظفروا بالفلاح فسلموا ونجوا ففازوا الفوز الأكبر ، عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا} [النبأ: ٣١] يَقُولُ: «فَازُوا بِأَنْ نَجَوْا مِنَ النَّارِ» فـ(مفازاً) فوزاً وظفراً بالبغية .

وقد جازاهم الله بفضله وأعطاهم أوفر مما عملوا ، فقال عن وصف حالهم في الجنة ((**حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا**)) فلمَّا اعتبروا بقدرة الخالق في الدنيا بالجنَّات الألفاف وأنَّ الله لم يخلقنا عبثاً وأنَّه لن يتركنا سدىً عملوا حتى فازوا بالحدائق والأعناب والكواعب الأتراب والكأس الدهاق .

والحدائق هي الأشجار العظيمة ، والجنَّة سميتْ بذلك لما فيها من الأشجار الملتفة التي تجن وتغطي من فيها .

{حدائق} أي بساتين فيها أنواع الأشجار ذوات الثمار والرياحين لتجمع مع لذة المطعم لذة البصر والشم ، قد أحدقت بها الجدران وحوطت بها .

الحدائق : جمع حديقة ، وهي البستان من النخيل والأعناب والأشجار التي قد حُوط عليها فأُحدقت بها ؛ فالإحداق الحيطان بها سميتْ حديقةً ، ولو لم تكن الحيطان محدقةً بها لم تسم حديقة .

وجمع الله الأعناب إشارة إلى كثرتها وتنوعها فهي ضروب وألوان وأشكال ، وفي سورة عبس وتولى قال ((**وعنباً وقضباً**)) لأنَّه امتنانٌ على أهل الدنيا ودعوة إلى النظر والعبرة ، أما عنبُ الجنَّة فقد جمعه إشارة إلى تنوعه وكثرته . وقد خصّ العنب بالذكر ، لأنَّه كما يبدو– فى الحياة الدنيا– طيب الثمر، دانى القطوف، ممتد الظل ، وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وخصت الأعناب بالذكر، لأنَّها من أعظم الفواكه وأحبها إلى النفوس.

ومع لذة المطعم ذكر الله لذة الأنس بالروح فقال ((**وكواعب أتراباً**)) والكواعب جمع كاعب وهي الفتاة التي تكعب ثديها . والأترابُ جمع ترب ، أي : المتشابهات في السن فسنهن واحد .

فمعناه : حورٌ نواهدٌ في سن واحدة .

ثم ذكر الله الرحيق المختوم فقال ((**وَكَأْسًا دِهَاقًا**)) فلأهل الجنَّة شرابٌ ليس كشراب الدنيا ، وقد وصف الله الكأس بالدهاق وهي الملآى المتتابعة الصافية . ثم قال تعالى مبيناً أنَّ هذا الشراب حينما يشربونه فهو لا يُذهب عقولَهم ولا يأتي على كمالاتهم النفسية فبين ربُنا هذا غاية البيان فقال ((**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا**)) فعندما يشربُ أهل الجنَّة هذا الشراب لا تذهب عقولهم مثل أهل الدنيا قال تعالى ((**لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ**)) فتبقى عقولُهم ولا تذهب ألبابهم ، بل يبقون في نعيم المعرفة والرضا بالله والفرح بجنته ومعرفته .

ولما كانت العادة جارية بأن الشراب الجيد يكون قليلاً ، دل على كثرته وعلى جودته بقوله : {دهاقاً } أي ممتلئة.

واللغو الكلام الذي لافائدة منه ، والكِذاب هو الكلامُ السيءُ ؛ فأهل الجنَّة لما حفظوا ألسنتَهم وأسماعَهم في الدنيا فهم في الجنَّة لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ، فالجزاءُ من جنس العمل .

وضبطُ اللسان عما يكرهه الله من أعظم الأسباب التي يتخذها العبد سبيلاً لنيل مرضات ربه .

قال ابن كثير مفسراً قوله تعالى : ((**لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا**)) : ((أَيْ: لَيْسَ فِيهَا كَلَامٌ لاغٍ عَارٍ عَنِ الْفَائِدَةِ ، وَلَا إِثْمٌ كَذِبٌ ، بَلْ هِيَ دَارُ السَّلَامِ ، وَكُلُّ ما فيها سالم من النقص)) .

إذن لَا يَسْمَعُونَ فِي الْجَنَّةِ الْكَلَامَ السَّافِلَ وَلَا الْكَذِبَ ، فَلَمَّا أَحَاطَ بِأَهْلِ جَهَنَّمَ أَشَدُّ الْأَذَى بِجَمِيعِ حَوَاسِّهِمْ مِنْ جَرَّاء حَرْقِ النَّارِ وَسَقْيِهِمُ الْحَمِيمَ وَالْغَسَّاقَ ؛ لِيَنَالَ الْعَذَابُ بَوَاطِنَهُمْ كَمَا نَالَ ظَاهِرَ أَجْسَادِهِمْ ، وقد كانوا في الدنيا ينعمون ببواطنهم ولم يؤدوا شكرها ، ففي النار أصابهم عذابُ كفران النِّعم ، وَكَذَلِكَ نَفَى عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَقَلَّ الْأَذَى وَهُوَ أَذَى سَمَاعِ مَا يَكْرَهُهُ النَّاسُ فَإِنَّ ذَلِكَ أَقَلُّ الْأَذَى .

وقد بيّن ربنا جل جلاله أنَّ هذا جزاءٌ وعطاءٌ من الله الكريم فقال : ((**جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا**)) وفي قوله : ((**من ربك**)) بيانٌ لمصدر الجزاء ، أي : إنَّه من عند الله الكريم ، والعطاءُ من الكريم يكون عظيماً ، وفي قوله : ((**عطاءً**)) أي : إنَّه زيادةٌ وفضلٌ ، وليس مجردَ جزاء ، بل هو فضلٌ وتكرمٌ منَ الله . و(حِساباً) صفة بمعنى: كافياً. من أحسبه الشيء إذا كفاه حتى قال حسبي.ثم بين تعالى عظمة عطائه بالإشارة إلى عظمته فقال : ((**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**)) والربُ هو الخالقُ والمالكُ والمدبرُ للسموات والأرض ، وما فيهما مسخرٌ بأمره ،(الرحمن) أي الذي له الإنعام العام الذي أدناه الإيجاد ، وليس ذلك لأحد غيرُه ، فإنَّ الكلَّ داخلٌ في ملكه ، ولذلك قال دالاً على الجبروت بعد صفة الرحمة : (لا يملكون) .

وفي قوله : ((**لا يملكون منه خطابا**)) بيانٌ أنَّ المقامَ مقامُ هيبةٍ وإجلالٍ ، فالمعنى : إنّ الذين هم أفضل الخلائق وأشرفهم وأكثرهم طاعةً وأقربَهم منه وهم جبريل والملائكة لا يملكون التكلم بين يديه ، فما ظنُّك بمن عداهم من أهل السماوات والأرض؟ثم بين صورةً من صور هذا الموقف ((**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**))

فالخلقُ كلُهم يقومون لرب العالمين ، ويشير هذا النص إلى رهبة هذا الموقف وعظيم شأنه وهول المطلع .

والروحُ هو جبريل ، وقد خص بالذكر لعظيم شأنه في تبليغ رسالات رب العالمين ؛ ليدرك المؤمن أنَّه لا درجة بعد النبوة أفضل من بث العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَا سُلْطَةَ وَلَا سُلْطَانَ لِأَحَدٍ فيه ، حَتَّى وَلَا بِكَلِمَةٍ إِلَّا مَا أُذِنَ فِيهَا من عند الله .

وفي قوله ((**لا يتكلمون**)) إشارةٌ أنَّ الموقف صمتٌ تامٌ هيبةً وإجلالاً لرب العالمين ، وعَنْ مُجَاهِدٍ، وَقَالَ: {صَوَابًا} [النبأ: ٣٨] قَالَ: «حَقًّا فِي الدُّنْيَا وَعَمِلَ بِهِ» .ثُمَّ بيّن ربنا أنَّ في هذا اليوم تحقُّ الأمور قال تعالى ((**ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا**)) فهُو حقٌ لا مِريةَ فيه ، وفيه تَحقُ الأمورُ ، وفي الدنيا الحقُ والباطلُ واللهو واللعب لقصرها ودنوها وانقضائها ، أمّا القيامةُ فلا شيء فيها إلا الحق ، فيومُ القيامة يَحْصُلُ فِيهِ كُلُّ الْحَقِّ ، وَيَنْدَمِغُ كُلُّ بَاطِلٍ .

وفي قوله تعالى : ((**فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا**)) بيانٌ أنَّ النجاةَ في العمل الصالح ، وعدمِ التقصيرِ فيه ، ومعلوم أنَّ الهمّة طريقُ القمة .

والمآبُ هو الطريق والمرجع والمنهج الذي يسلكه ، فـ(مآباً) مرجعاً إلى طاعته ومرجعاً عند لقائه ، وَالتَّقْدِيرُ : (مَآبًا فِيهِ) ، أَيْ فِي الْيَوْمِ .

ثم يختم الله السورة بقوله : ((**إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**)) وقد جاءت هذه الآية الكريمة بضمير التعظيم (نا) مؤكداً بـ (إنَّ) فربُنا معظمٌ منْ عباده ، وهو العليُّ العظيمُ .

والإنذارُ تعليمٌ ، وهو التعليمُ على سبيل التحذير والتخويف والترهيب .

أي : خوّفناكم بالقوارع الواردة في القرآن : عذاباً قَرِيباً .

والعذاب قريبٌ فكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ ، وهو معدودٌ ، وكلُّ معدودٍ ينتهي .

والإنذارُ : الإخبارُ بحصول شيءٍ تَسوءُ عاقبتُهُ ، في وقت يستطيع المنذرُ فيه أنْ يُجنب نفسَهُ الوقوع في ذلك الشيء ، أي : إنا أخبرناكم أيها الناس بأنَّ هناك عذاباً قريباً ، سيحل بمَنْ يستحقه عما قريب ، يوم يرى كلُّ إنسان عمله حاضراً أمامه ، ومسجلاً عليه .

(يقول الكافر) الرائي قوابحَ أفعالِه وفواسد أعماله متأسفاً متحسراً متمنياً هلاكه على سبيل المبالغة بعبارة التمني المقرونة بالتوجع ، فيتمنى الموت يومئذ ، ولم يكن في الدنيا شيءٌ أكرهَ عنده

من الموت . وأنا أقول كن كما قال الحسن البصري عند قوله تعالى : (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) قال : المرءُ المؤمنُ يحذَرُ الصغيرة ، ويخافُ الكبيرة.

وفي هذا التهديد بيانُ المصير ((**يوم ينظر المرء ما قدمت يداه**)) والمقصودُ إحصاءُ أعمالِ الإنسان ، وما اقترفتهُ جوارحُهُ وما انعقدت عليه العزائم ، فالمؤمنُ يفرحُ بالعمل والمجرم يتمنى الموت قال الْحَسَن البصري ، فِي قَوْلِهِ : (يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) قَالَ: «ذَاكَ الْمُؤْمِنُ الْكَيِّسُ الْحَذِرُ، عَلِمَ أَنَّ لَهُ مَعَادًا فَقَدَّمَ وَقَدَّمَ، فَلَمَّا قُدِمَ عَلَيْهِ نَظَرَ إِلَى مَا قَدَّمَ وَاغْتَبَطَ» .

وَالْمَرْءُ : اسْمٌ لِلرَّجُلِ إِذْ هُوَ اسْمٌ مُؤَنَّثُهُ امْرَأَةٌ ، وَالِاقْتِصَارُ هنا عَلَى الْمَرْءِ جَرَى عَلَى غَالِبِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَبِ فِي كَلَامِهِمْ ، فَالْكَلَامُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ فِي التَّخَاطُبِ ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْمُشَارَكَةِ فِي شُؤُونِ مَا كَانَ خَارِجَ الْبَيْتِ ، وهذا فيه ملمحٌ ضد الاختلاط وأنَّ وظيفةَ المرأة الرئيسةَ بناءُ البيتِ الذي يمثلُ لبنةً منْ لبنات المجتمع .

أما الكافر فقد قال الله عن حاله تلكم اللحظة : ((**وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا**)) فهو بيان وتحذير ، وفي ذلك تأنيسٌ للمؤمنين ووعيد على الكافرين فالكافر يقول ذَلِكَ حِينَ يعَايَنَ عَذَابَ اللَّهِ، وَيَنْظَرُ إِلَى أَعْمَالِهِ الْفَاسِدَةِ قَدْ سُطِّرت عَلَيْهِ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ السَّفَرة الْكِرَامِ الْبَرَرة . وفي ذكر ليت اعتبار أنَّ الأمر مجرد أمنية لا تتحقق ، وهذا الموت الذي يفر الناس منه الآن يتمناه المقصر يوم القيامة ؛ فنسأل الله أن يجعل خير أيامنا يوم نلقاه .

وهُوَ اليوم الذي حذرنا الله منه هو الْأَعْظَمُ مِنْ بَيْنِ مَا يَعُدُّهُ النَّاسُ مِنْ أَيَّامِ النَّصْرِ لِلْمُنْتَصِرِينَ ؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ يُجْمَعُ فِيهِ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَيُعْطَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ؛ فَكَأَنَّ مَا عَدَاهُ مِنَ الْأَيَّامِ الْمَشْهُورَةِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ حلمٌ ، وَهَذَا التَّفْرِيعُ مِنْ أَبْدَعِ الْمَوْعِظَةِ بالترغيب والترهيب عِنْد مَا تَسْنَحُ الْفُرْصَةُ لِلْوَاعِظِ مِنْ تَهَيُّؤِ النُّفُوسِ لِقَبُولِ الْمَوْعِظَةِ (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً).

وَالِاتِّخَاذُ : مُبَالَغَةٌ فِي الْأَخْذِ ، أَيْ : أَخَذَ أَخْذًا يُشْبِهُ الْمُطَاوَعَةَ فِي التَّمَكُّنِ ، وشعار المؤمن في هذه الدنيا الفانية ما جاء في سورة الرعْد : ((إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ)) ومعنى (مآب) ، أَيْ : رُجُوعِي ، فما دام أنَّ رجوعَك إليه فاتخذ عنده مآباً .

أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) قال : اتخذوا إلى الله مآبا بطاعته ، وما يقربهم إليه .

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار الحديث الشريف
د. ماهر ياسين الفحل